محمد شبعة (2013.1935) الفنان الثائر

"يقدم المشهد الثقافي المغربي فضولاً غير مألوف في المناخات الأخرى. ليس من المعتاد، عند تقديم عمل أحد مبدعينا (رساما أو شاعرا أو غيره)، أن نتحدث عن الرجل (أو المرأة)، فاعتبار، أولا، منظومة تكوينه الفكري، وتجربته في الحياة، حتى الحميمة منها، وخصوصيات مزاجه وحساسيته. قد يكون المأزق على أشده حول أفكاره، سواء كانت تتعلق بمفهوم ممارسته الفنية أو نظرته إلى مشاكل مجتمعه الخاص والمجتمع البشري بشكل عام".
عبد اللطيف اللعبي

يعتبر الفنان محمد شبعة أحد رموز الحركة التشكيلية في المغرب. تميزت تجربته بمراحل متنوعة وعديدة، إلى جانب كل من فريد بلكاهية ومحمد المليحي. كان شبعة في بؤرة الغليان الثقافي والفني الذي عرفه عقد ستينيات القرن الماضي والذي تجسد في حركية ما عرف بمجموعة الدار البيضاء الناشطة آنذاك بمدرسة الفنون الجميلة. لم يقتصر شبعة على أسلوب تعبيري واحد بل مارس أنماطا مختلفة توجت بتراث صباغي غني إلى جانب خطاب تشكيلي متميز. كان شبعة أول من طور خطابًا عن الرسم الحديث نشرت جريدة العلم بعض نصوصه خلال خمسينيات القرن الماضي.

ولد محمد شبعة عام 1935 بمدينة طنجة شمال المغرب. بعد حصوله على دبلوم التخرج من مدرسة الفنون الجميلة بتطوان عام 1955، التحق بإيطاليا لمتابعة دراسته، حيث قضى هناك سنتين، من 1962 إلى 1964 في أكاديمية الفنون الجميلة في روما. بعد عودته الى المغرب، التحق عام 1966 للتدريس بمدرسة الفنون الجميلة بالدار البيضاء، حيث شارك بحيوية في إعادة الهيكلة التعليمية لهذه المدرسة، إلى جانب كل من فريد بلكاهية

ومحمد المليحي، بتدشينهم لمسار جديد للبحث التشكيلي معتمدين على مقاربة التراث الفني الوطني.

محمد شبعة رجل الفعل الجماعي، شارك في الجيشان الثقافي الطليعي الذي كان يتمركز حول مجلة "أنفاس" التي أنشئت في عام 1966 . ف "بدونه، لم تكن تجربة مجلة "أنفاس" في الستينيات قد حققت التقدم المذهل نحو الحداثة التي لا يمكن الاعتراف بها اليوم. كان للشكل المستقبلي الذي نجح في إضفائه على المجلة، تأثيرًا حقيقيًا على المحتوى نفسه. وبفضله (وفضل رسامي المجلة الآخرين)، قادنا إعادة تأهيل فننا التقليدي إلى البحث عن التراث الشعبي بكل تنوعه لجعله أحد مقومات مشروع إعادة البناء وتجديد ثقافتنا" (اللعبي). طرح في مداخلاته، مشكلة الإبداع الفني في علاقته بالسياق السوسيو/ثقافي المغربي. كان من المؤيدين والدافعين إلى خلق أشكال جديدة للفعل الثقافي/الفني، والقطيعة مع الموروث الاستعماري. تحقق ذلك من خلال تدخلاته في الفضاء العام، وإنجازاته التكاملية لتطعيم المنشآت المعمارية بالمنجزات التشكيلية، فلم يوقف أبدا دعوته لإنشاء قواعد ثقافة بصرية ضامنة للتربية والذوق الفنيين. لم يهتم محمد شبعة في كتاباته بالأفكار التجريدية النظرية، على الرغم من أنه، من بين الرسامين الذي كتب أكثر عن تجربته وعن الإبداع التشكيلي المغربي بشكل عام.

كان محمد شبعة دؤوب النشاط، لم يتوقف ولو لحظة واحدة عن الإنتاج والعطاء. وكانت عطاءاته متنوعة ومختلفة، تتغير من تيمة إلى أخرى ومن تقنية إلى غيرها. لم يفلح لا الزمان ولا المكان ولا الأحداث في كبح قوة نشاطه أو إخماد شرارة إبداعه. كتب عبد اللطيف اللعبي: "خلال الفترة التي قضيناها معًا في السجن (1972-1973)، [بعد حظر مجلة أنفاس واعتقال طاقمها بسبب مواقفهم اليسارية]، كنا في الغالب في الزنزانة نفسها، جنبًا إلى جنب. لعدم وجود المعدات المناسبة للرسم، كان محمد يرسم بلا كلل مستعملا ما توفر لديه من وسائل عادية (أقلام لبدية أوملونة)، لتحضير التقدم الجديد الذي سيعرفه عمله بعد تسريحه: ترنيمة تهتز إلى الحرية، إحياء من الضوء الداخلي، يحملها غناء ضمني، دون سهولة أو محسنات".

كان لدى شبعة، وهو أستاذ بارز ومتميز، إحساس قوي بالخطوات التي يجب اتخاذها والمسار الذي يجب اتباعه،

وأفق تحقيق كل ذلك. وهكذا، نجده يشارك بحماس في المعارض المنظمة بالأماكن العامة، منذ نهاية الستينات (معرض جامع الفنا بمراكش، ومعرض ساحة 16 نونبر بالدار البيضاء، والمشاغل الفنية التي نظمت بمستشفى الأمراض النفسية بمدينة برشيد، وجداريات مدينة أصيلة...).

توج محمد شبعة بعدة جوائز منها وسام الجمهورية الإيطالية من درجة "قائد" عام 1992، تقديرا للمشاركة القيمة في أشغال مسجد روما إلى جانب الصناع التقليديين المغاربة. وفي عام 2008، قلده الملك محمد السادس وساما ملكيا من درجة ضابط.

تأثر محمد شبعة في بداياته الأولى برسامي الحداثة الغربية، فنجد أعماله تستمد روحها من تكوينات الروسي فسيلي كاندينسكي والإسباني بابلو بيكاسو، في محاولة للتخلي عن التصوير الذي كان يظنه ضروريا لاتخاذ "موقف اتجاه مشكلات إنسانية محددة"، خوفا من الوقوع في تعبير حكاياتي وأدبي. كانت إقامته بروما خلال الفترة بين 1962 و1964، فرصة سانحة للتعرف على لوحات الرسام الأمريكي فرانز كلاين Franz Kline، التي أثارت إعجابه وفتحت أمامه آفاقًا جديدة. يتحدث محمد شبعة عن تلك الفترة بقوله: " إن الرسم الإيمائي، الحركي الذي يتميز بالاستخدام الحصري للأبيض والأسود، يتوافق مع الجوانب الغنائية والمواقف الاحتجاجية التي تم التعبير عنها في أعمالي السابقة، وبدأت أنا أيضا في صباغة لوحات بالأبيض والأسود. لم يكن من وراء هذا القرار حاجة إلى التجديد الجمالي، بقدر ما كان رغبة في تعميق وعيي كرجل متمرد. سمح لي التقشف وخطورة اللونين الأسود والأبيض بتمثيل واقع من الصراعات والنزاعات والظلم الاجتماعي". رغم ذلك تبقى بعض اللوحات التي أنجزها محمد شبعة خلال فترة إقامته بروما، شاهدة على رغبة في الارتباط بعالم داخلي وبثقافة تسكن ملامحها أعماق الذات. كانت تلك الرغبة هاجس رفقائه في الدرب جميعا. فالكتابة التصويرية رغم إشاراتيتها، لا تخلو من مغزى، حيث البقع السوداء تنتظم كي تكشف عن ذكريات خطية عربية حبيسة.

مع انتقاله إلى الدار البيضاء، وممارسته التدريس بمدرسة الفنون الجميلة، وانغماسه في حركية جماعة 65

الحداثية، نجد محمد شبعة يُخْضِع الغنائية والعفوية اللتين كانتا دائمتين في أعماله السابقة إلى نوع من السيطرة الهندسية الصارمة المتمثلة في الخطوط المستقيمة والزوايا الحادة والألوان الرئيسية الصارخة. "تمكنت من فرض النظام على الأشكال"، يلاحظ محمد شبعة. فعمليته هاته يمكن اعتبارها قلبا للمعادلة التي عرفها تاريخ اللوحة الحديثة، إذ هنا يحل التجريد الهندسي محل التجريد الغنائي وليس العكس. (خليل لمرابط)

كان شبعة يركز أكثر على المشاكل ذات البعد التشكيلي/الجمالي، أكثر من غيرها. فالشكل وعلاقته بالفضاء، واللون، والأشكال الصافية كلها عناصر باتت تكون مركز اهتماماته.

هوامش:

1- محمد شبعة، الوعي البصري بالمغرب، منشورات اتحاد كتاب المغرب الرباط، 2001

2- عزيز أزغاي، التشكيل وخطاباته، تطور الخطاب النقدي حول الفن التشكيلي في المغرب، دار أبي رقراق للطباعة والنشر،2015، الرباط

3- Mohamed Sijilmassi – L'art contemporain au Maroc, ACR Edition, Paris, 1989

4- Khalil M'rabet – Peinture et identité, l'expérience marocaine, Ed. L'Harmattan, 1987 Paris